

المجلس الأول

في مقام التلقي لحقيقة الكتاب وحكمته وشرطه



١ - كلمات الابتلاء:

قال الله جلَّتْ جِوْمَتُهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمَّ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾

٢ - البيان العام:

افتتح الله ﷻ سورة البقرة بأحرف مقطعة، كما هو الشأن بالنسبة لبعض سور القرآن الأخرى. والأحرف المذكورة هنا ثلاثة: ألف ولام وميم، وهي كغيرها من متشابه القرآن الذي اختلف المفسرون في دلالة كثير. وقد اختصر ابن كثير رحمه الله أقوال العلماء في أحرف القرآن المقطعة في أربعة مذاهب:

الأول: أنها مما استأثر الله بعلمه، فلا تفسير له.

الثاني: أنها أسماء السور المذكورة بها.

الثالث: أنها رموز دالة على بعض أسماء الله وصفاته.

الرابع: أنها بيان لإعجاز القرآن؛ بما هي حروف مما يتكلم به الناس، لكنهم مع ذلك عاجزون عن معارضته. واختاره ابن كثير ثم قال: (حكاه الرازي عن المهرم وجمع من المحققين، وحكاه القرطبي عن الفراء، وقرره الرمخشري ونصره أتم نصره، وإليه ذهب الإمام ابن تيمية، وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي) (١).

(١) تفسير ابن كثير: ٥ ألم البقرة: ٥.

تجعلوا
(١) هـ
أمامه
لجيش
لقراء
لان
لنوعة

والحقيقة أن هذا الاختيار أيضًا لا يستقيم على التمام، فأقصى ما يقال فيه أنه ضرب من التفسير الدوقي. وهو وإن صَحَّ من حيث قصد الإعجاز فهو بالتبع لا بالأصالة. وإلا فَنَمَّ أسئلة ستبقى معلقة على هذا الاختيار بلا جواب. منها: سؤال لماذا جاءت هذه الأحرف بالذات في هذه السورة دون تلك؟ ثم ما علاقة كل منها بسورها المذكورة بها؟ ثم ما وجه تفسيرها جميعها بالمعنى الإعجازي هكذا مطلقًا، رغم اختلافها في نفسها؟ فحروف ﴿الذَّ﴾ هي غير ﴿الذَّ﴾ [يونس: ٨١]، وغير ﴿كَيْهَيْصَ﴾ [مریم: ١]، ولا ﴿صَّ﴾ [ص: ١]، ولا ﴿حَمَّ﴾ [الأحقاف: ١]، ولا ﴿قَّ﴾ [ق: ١]! فهل وجودها بمحالتها مجرد صدفة؟ أم أن هناك حكمة كامنة وراء كل منها على جِدة؟ ثم لماذا ذكرت هذه الأحرف بذاتها، دون غيرها من حروف العربية، كالباء والتاء والثاء والدال... إلخ؟

بل إننا نقطع بأن حقيقتها أعمق من القصد الإعجازي البلاغي، الذي هو صفة شاملة للقرآن كله! إنها أوغل في عمق الغيب من هذا المعنى البسيط الذي ذكره بعض المفسرين؛ ولذلك نرى أن قول من قال: «إنها مما استأثر الله بعلمه» هو أقرب للصواب وأعمق في البيان! نعم إنها إشارات إلى بحر الغيب الذي يمجج تحت كلمات القرآن! وهذا التفسير لا يدل على عجز القائلين به عن الفهم، بل هو عندي رأس الفهم وقمة البيان، ومقام عالٍ من مقامات العلم بالله وبالقرآن!

والمقصود أن القول بالإعجاز هكذا مجردًا عن حقيقته الغيبية، يجعله مجرد تفوق في مجال بيان اللسان ليس إلا وكتاب الله أعلى من ذلك بكثير! ومن هنا وجب أن نجتمع بين التفسيرين: القائل بغيبية الأحرف وأنها من علم الله الخاص، والقائل بأنها لبيان إعجاز القرآن، على أساس أن يكون معنى الإعجاز تابعًا لمعنى الانتساب إلى علم الغيب الرباني الذي لا يحيط به بشر؛ بما يجعل الإنسان يشعر حقيقة بالعجز عن الفهم التام والإدراك الكامل! نعم العجز عن الفهم للأحرف المقطعة من ناحية، ولما تُشير إليه من حقيقة هذا الكتاب كله، وطبيعته بما هو كلام الله رب العالمين! فمهما تلقى البشر من حقائقه المأذونة فهما وإدراكًا، فإن الإحاطة بحقائقه وأعماقه ضربٌ من المستحيل! بل يبقى الغائص - مهما استخرج من لآلئ - يلهث دون إدراك أعماقه، عاجزًا عن الوصول إلى نهاياته، تمامًا كما يبقى عاجزًا أمام رموز أحرفه المقطعة «ألم» وأضرابها! وبيان ذلك مُفَصَّلًا هو كما يلي:

إن الشيء الواضح الذي لا مرأى فيه، هو أن هذه الأحرف قد بقيت لغزاً من ألغاز القرآن الكريم! ولا أحد استطاع أن يأتي فيها بقول يكشف سرّها، ثم يستقيم ومقاييس العلم رواية أو دراية! فكل ما قيل حولها تخمينات وظنون لا تغني عن الحق شيئاً! حتى إن بعض المفسرين مال إلى ربطها بحساب الجمل، وهو أمر لم تعرفه العرب، ولم تفسّر به خطابها قط. وكل ما ورد في ذلك من الروايات ينتهي أغلبه إلى الإسرائيليات! وفي بعضها من الباطل ما كشفه التاريخ! كتحديد عمر هذه الأمة بناء على جمع لأعداد بعض تلك الحروف على حساب الجمل! ثم امتدت الأمة في الزمان أكثر بكثير مما عدّوا لها!

إن الشيء الوحيد الذي بقي مقبولاً في تفسير هذه الأحرف هو أنها - كما ذكرنا - من متشابه القرآن الذي لا يعلمه إلا الله! وهذا مُغطى علمي مهم جدّاً، نبني عليه بياننا - بحول الله - ههنا، وذلك بتسجيل الملاحظات التالية:

أولاً: أن هذه الأحرف لها في مواضعها من كتاب الله دلالتها الخاصة! وهي دلالات مختلفة؛ لاختلافها في نفسها، ف ﴿آل﴾ مثلاً ليست هي ﴿الر﴾ [يونس: ١]، ولا هي ﴿التر﴾ [الرعد: ١]، ولا هي ﴿التص﴾ [الأعراف: ١]، ولا هي ﴿كهيص﴾ [مريم: ١]، ولا هي ﴿يس﴾ [يس: ١] أو ﴿ص﴾ [ص: ١] أو ﴿ق﴾ [ق: ١]... إلخ، فكل زيادة أو اختلاف في المبنى، يدل على زيادة أو اختلاف في المعنى.

ثانياً: أن لها معاني خاصة عند الله تعالى، مرتبطة قطعاً بسورها المذكورة في أوائلها من جهة، ومرتبطة - من جهة ثانية - بطبيعة هذا القرآن، الذي هو كلام الله ﷻ. فالله تعالى لا يتكلم عبثاً، بل لا يتكلم إلا بالحق، سبحانه ﷻ. والقول بأنه لا معنى لها على الإطلاق مجازفة في حق كلام الله رب العالمين!

ثالثاً: أن الله تعالى استأثر بحقائق تلك الأحرف في علم الغيب عنده، كما استأثر بكثير من أسمائه الحسنی وصفاته العلی عنده أيضاً! وفي هذا دلالة عظيمة على ثمرة إيمانية كريمة، وهي كما يلي:

رابعاً: أن حقيقة هذا القرآن كله - ما علمنا منه وما لم نعلم - مرتبطة بعالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله! وأنه تعالى إنما بيّن لنا منه ما تقوم به حياتنا التبعديّة، وتتوجه به التكاليف الشرعية والعقدية والعملية، ويصلح به العمران البشري، وتقوم به

السخية على الناس! وذلك هو ما يُسر منه تيسيراً! كما قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرَ الْفُرْقَانُ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّكْثِرٍ﴾ [نور: ١٧] - ولأ فمن ذا قدس على أن يطقى كلام رب العالمين - المحيط بكل شيء في هذا الوجود العظيم - وأن يركله تزيلاً؟! ولقد صدق سيدنا ابن عباس رضي الله عنه، إذ قال في هذا قوله الشهيرة: (لولا أن الله يشره على لسان الآمين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ) (١). ومن هنا وردت هذه الحروف في كتاب الله من الغوامض التعيرية، وفي ذلك إشارة إلى هذا الأصل الإعجازي العظيم! كأنها تقول للإنسان: اتجه! إن هذا الكتاب الذي يُسر لك أن تقرأه اليوم كتاب غير عاديٍّ تماماً! إنه كتاب غريب عجيب! إنه بحار غير متناهية من الحقائق الغيبية والكونية مما لا يحيط بحقيقته إلا الله رب العالمين! فتأدب يا عبداً تأدب بأدب العبودية بين يدي الملك العظيم، وأنت تستفيد - فيما أُذن لك - من نعمة تيسر القرآن المجيد تلاوةً وتديراً.

وبكفيك دلالة على هذا التاصيل الأصيل، قول الله تعالى عن كلامه ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَدْعُ مِنْ بَعْدِهِ مَسْبَعَةً أَلْجُرْ مَا نَبْدْتَ كَلِمَتٌ أُقَُّ إِذْ أَقَُّ عَنْهُ حَكِيمٌ﴾ [نمل: ٢٧] ولقد أشار النبي ﷺ إلى تفرد كل حرف من حروف القرآن العظيم بقيمة ذاتية، لكن ليس بما هو حرف عربي، ولكن بما هو جزء من كلام الله ﷻ! ولذلك رتب الأجر للقارئ على عدد ما قرأ من حروف! رغم أن الحرف في اللغة البشرية وحدة صوتية لا معنى لها! لكنه ههنا شيء آخر، إنه حرف مختلف عن أي حرف في أي لغة، إنه حرف قرآني! وبكفيه ذلك ليضرب به جذوره في عمق الغيب! ذلك هو مقتضى الحديث النبوي المشهور، من قوله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «ألم، «حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» (٢).

ومن هنا أيضاً وردت أغلب الأحرف المقطعة في أوائل السور مرتبطة بالإشارة إلى عظمة القرآن، أو مصدرته، أو في سياق قسم الله ﷻ به! كما في قوله تعالى من

(١) تفسير ابن كثير (٣٣٧/٤).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. انظر من الترمذي (كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء من قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر). كما رواه الحاكم أيضاً في المستدرک.

فاتحة البقرة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىكَ آيَاتِهِ وَخَرَجَ بِكَ مِنَ الْبُيُوتِ بِزُجَّتِكَ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ لَّكَ وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ [الأعراف: ١، ٢]. وفي يونس: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ [يونس: ١] وفي هود: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ [هود: ١] وفي الرعد: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ [الرعد: ١] وفي إبراهيم: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ [إبراهيم: ١] وقال في يس: ﴿مُفْسِّمًا﴾ [يس: ١] ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ [يس: ٢، ١] ثم قال في ق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدُ﴾ [ق: ١] وغير هذا وذلك في القرآن كثير.

قال الأمر إذن إلى أن قوله تعالى ههنا في بدء سورة البقرة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىكَ آيَاتِهِ وَخَرَجَ بِكَ مِنَ الْبُيُوتِ بِزُجَّتِكَ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ لَّكَ وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ ... دالٌّ على أن هذا الكتاب، الميسر الآن قرآنًا يُتلى، هو من كلام الله رب العالمين وهذه حقيقة لا قدرة للعقل البشري على الإحاطة بمفهومها كيفًا ووصفًا وإنما له فقط أن يؤمن بها، وأن يتلقى ما أُذِّن له فيه من تدبير آياتها بموازين القرآن. فلا يخرج عن ذلك إلى جدل الكلام العقيم؛ وإلا كان من الضالين! فشأن العبد أن يتلقى التعاليم من ربه أمرًا ونهيًا، فيادر إلى العمل ويسارع للتنفيذ. وعندما يغتر بقوته العقلية المحدودة، فيحاول البحث في طبيعة الكلام الإلهي، ويجازف بمحاولة الاقتراب من الذات الإلهية مما لم يؤذن له فيه ولا هو يستطيعه، كلما حاول ذلك احترقت بصيرته وارتد خاسئًا وهو حسيرًا ولذلك فإن الحق ﷻ قبل عرض آيات الكتاب المحكمة وهذاه المفضل في هذه السورة؛ قدَّم تعبيرًا مبهمًا غامضًا موعلاً في الإبهام والغموض، وكأنه طلسم مختوم به على كثر دفين! فقال تعالى مخاطبًا الإنسان المتلقي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىكَ آيَاتِهِ وَخَرَجَ بِكَ مِنَ الْبُيُوتِ بِزُجَّتِكَ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ لَّكَ وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ [يونس: ١] من ذلك البحر الإلهي العظيم: الغيب! الذي ليس للعبد إلا أن يقف على شاطئه مُسَبِّحًا بحمد ربه مؤمنًا به، ومغترفًا مما تدفق عليه من أمواجه! ولذلك عبر باسم الإشارة «ذلك» الدال على البعد والمقام العالي! فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ...﴾ [يونس: ١] ذلك الكتاب الذي لا يطبق الإحاطة به أحد، ولا يستطيع تحدّيه أحد! إنه كلام الله وكفى بها حقيقة تهذ الكيان وتزلزل الوجدان!

ثم انبسط الخطاب إلى الناس بما يطيقون؛ عقيدة واضحة، وتشريعًا مُحَكَّمًا، وقصصًا يُتلى عبرة وحكمة. فكان ذلك كله نعمة من الله وفضلًا فلا يغرنك ذلك

الانسياط والتيسير أن تظن أن هذا الكتاب كلام كسائر الكلام! بل هو من بحر ﴿الْقَدْ﴾ ﴿كَلَامَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَاسْجُدْ لِرَبِّكَ يَا عَبْدٌ وَاحْضَعْ! وَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُرْتَابِينَ الْمُتَرَدِّدِينَ فَإِنَّهُ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾ ﴿لَارِيبَ وَلَا شَكَّ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَصْدَرَتِهِ! بَلِ الْيَقِينُ كُلُّ الْيَقِينِ فِي أَنَّهُ كَلَامُ الرَّبِّ الْعَظِيمِ! نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ وَحَمِيمًا مَحْفُوظًا، عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ.

والقرآن كتابٌ واحدٌ، مثَّل من ربِّ واحدٍ. يتناسق سابقه مع لاجقه، ويتجاوب أوله مع آخره؛ ومن ثمَّ جاءت هذه الفواخ من سورة البقرة؛ جوابًا عن دعاء العبد في سورة الفاتحة: أَنْ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فجاء الجواب مباشرة في مطلع السورة التي تليها: البقرة، والتي بها اثني عشر تفصيل الكتاب، جاء تحقيقًا لمقتضى ذلك الدعاء وبيانًا لهدى ذلك الصراط. فقال: إنه ههنا في هذا الكتاب! الكتاب العالي الرفيع، الكتاب المنزَّل بالحق يقينًا من ربِّ العالمين، ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿فَالْهُدَى الَّذِي تَطْلُبُهُ يَا عَبْدُ قَرِيبٌ.. إنه هنا، هنا في هذا الكتاب! فالتزم شرط التلقِّي واقرأ! هذه بَسَاتِينُ تعرض جمالها وثمراتها بين يديك! وتلك معارجه ترفع روحك إلى مقام العلم بالله! وهذا الكتاب كتابٌ! فمن معاني هذه العبارة - إضافة إلى المعنى المتداول المشهور، الدال على الشيء المكتوب تأليفًا في قراطيس وصحف - معنى يرتقي بمفهوم الكتاب إلى معنى «الرسالة»، أي الخطاب المرسل من مُرْسِلٍ إلى مُرْسَلٍ إليه. وهذا من خصائص هذا القرآن. فهو كتاب الله إلى الإنسان، بمعنى رسالته تعالى إليه! وإنه لمعنى كوني ضيخم، ولمغزى وجودي رهيب! لو تدبَّره الدارسون وتفكَّروا فيه المتفكِّرون! فما أعظمها وأجلها من حقيقة! الكتاب: رسالة الله ربِّ العالمين، وخالق الملكوت والناس أجمعين؛ إلى هذا المخلوق الضعيف الحقير: الإنسان! رسالة جاءت لتجيب الإنسان عن أسئلته الخالدة: «من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟» إنها الأسئلة التي ضلَّت عن أجوبتها الفلسفات، وضاعت في متاهاتها الخيالات! ولم تزل تقلق العقل البشري منذ أقدم العصور، أَرْقًا مُدْمِرًا، يقض مضجع الحضارة البشرية إلى يومنا هذا! فمهما عرفت هذه الحضارة من تطوُّر وتقدُّم في كثير من المجالات المادية والعمرائية، فقد ضلَّت ضلالًا بعيدًا، وشقيت شقاءً شديدًا، في طريق البحث عن

سعادتها، والسعي وراء لذتها وراحتها، لكن دون جدوى!

فالإنسان إزاء هذه الأسئلة على خهارات ثلاثة: إما أن يُقبل عليها بعقل مجرد، فيظل يطرق أبوابها طروقاً فلسفياً، لكنه قطعاً يموت بدهش دون كشف أسرارها، فإن أتى منها بشيء كان أشبه في سداجته بخيالات الأطفال وإما أن يُذهِر عنها ويُغني التفكير في طلاسها، بل قد يحظر السير بمسالكها ويمنع قهراً ثم يختزل الوجود البشري كله - علة وغاية - في المتعة المادية الأرضية ولكن ما هو ذا يعيش ويتمتع، ويغرف من الملذات ما يُدزّله، ويتقلب فيما يشتهي... ثم بعد سنوات قلائل، جدّ قلائل، يشيخ أو يهرم فيموت! وينتهي كل شيء وينفى المتعة واللذة وسائر الشهوات! وهو في كلاً الخيابين ينتهي إلى خراب ودمار... فواحسرتاه! واحسرتاه!

وهو في الثالث قد يُقبل بأسئلته الحزوى على خالقه، طارِقاً باب ربه وسيده، مُقدِّماً بين يديه عجزه وفقره إليه يدعو خاشعاً بدعاء الفاتحة: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ... ﴾ (الفاتحة: ١٧، ٦) فأنشد - وأنشد فقط - تفتتح له الأبواب وتكشف الأسرار فالزوب - جلّ ثناؤه - مَلِكٌ كريم ورحمن رحيم هنالك يتجلى الجواب الشافي للعبد الأواب، إزاء كل سؤال من أسئلته المحيرة تُهدى بسلك به وبجتيه بلطف ورحمة إلى ربه الملك الكريم، ويضعه في فلكه الطبيعي، حتى إذا دار هوناً مع الملكوت السائر إلى الله، أدرك معنى وجوده حقاً، وأبصر وميض النور بالأفق الأعلى، فعرف بذلك نفسه وغايته، ثم ذاق جمال الحياة الصافي، ومتعة العيش غير المزيّفة! متعة حقيقية صادقة، لا تنتهي بموت، ولا تذهل بمرض، ولا تشيخ بشيخوخة أو هرم! فأكرم به من هدى وأنعم!

ذلك هو هذا الكتاب ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾، وللمتقين فقط! الذين أقبلوا على الله بقلوب واجفة، قلوب تملؤها الخشية والرهبة؛ لما شاهدوا من تجليات العظمة والجلال في عالم الملك والملكوت! فوق في قلوبهم ما وقع من خوف مقام ربهم العظيم! ثم وظنوا القلب على السفر البعيد، وذلّلوا الظهور والأكتاف على حمل تكاليف العبودية، سبوا إلى الله رغباً ورهباً! وأما ما سوى هؤلاء، ممن يفتح صفحات هذا الكتاب بقلب غليظ، ويقرأ كلماته من برج الاستعلاء والكبرياء، يقرأ كما يقرأ أي كتاب بشري، ناظرًا إليه من عل! كي يخضعه للنقد والمساءلة والتفتيش! أما هذا الضرب من الناس، فلا فتح ولا كشف ولا هدى! فالله ﷻ يغار على كلامه،

من بحر
كن من
نك في
الروح

سجود
بد في
مقيم
سورة
عاه
لجني
طلبه
الله

اول

في

به

لي

به

ن

ه

ا

وكانه حصن منيع لا تفتح أبوابه إلا لمن أُلح عليه حينئذ ﴿لَقَدْ يَنْقُصُ الْقُرْآنُ﴾

عَنْ نَاسٍ أَتَقَالَهُمْ ﴿سورة ٢١: ١٠٢﴾

يُكَلِّمُ النَّاسَ بِمَكْنٍ أَنْ يَقْرَأُوا الْقُرْآنَ، لَكِنْ لَيْسَ كَلِمُهُمْ عَمَّا وَلَا يَحْطَرُّ خُفْيَهُ

فَيَمَّا يَنْقُصُ خُفَاةُ الْقُرْآنِ

وهذه الهدى، اسم لفهوم من أعظم مفاهيم القرآن ومفتاح من أهم حقيقته الكبرى وهو يذكر فيها - بالصيغة الاسمية - لأول مرة في كتاب الله، على ترتيبه التبعيضي. ويصبح بعد ذلك مصطلحاً أساسياً في بيان طبيعة هذا القرآن وحقيقته. وقد ورد في مواطن كثيرة جداً من كتاب الله، انطلاقاً من سورة البقرة إلى أواخر المفضل على نحو ما في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿هَذَا كَيْدُ الْفِتْرِ وَهَذَا يُؤْتِيكَ الْفِتْرُ﴾ [آل عمران: ١٢٨] وقوله سبحانه في سورة الحين: ﴿لَقَدْ سَمِعْنَا الْفِتْرَ مِمَّا يَكُنُّ يَوْمَئِذٍ يَكْفَى بِحَقِّكَ وَلَا رَيْبَ﴾ [الحين: ١٢: ٤] نسعى القرآن هنا - الهدى - حكماً على الشمول والاستغراق.

ولفظ الهدى في اللغة راجع إلى معنى الدلالة على المطلوب بوقف، والإرشاد إلى النتيجة بلطفاً^(١) تماماً كما تأخذ بيد الأعمى التائه، فتدله على الطريق بهدوء وأناة. ومن ثم فالتفصيل أو التعبير المبني على عطف أو غلظة لا يسمى في العربية هدى، ولو كان يقصد الدلالة ومن هنا كان القرآن هو الهدى: ﴿قُلْ إِنَّكَ هَدَى اللَّهُ مَوْجِبَ الْفِتْرِ...﴾ كما ورد في سورتي البقرة والأنعام.

فالعبء المسوق إلى ربّه بلائح التقوى، تتوارد الآيات على قلبه شفاة ورحمة، وتمنحه سكينه غامرة وطمانينة، ثم تحدوه أنوارها إلى ربّه مسروراً! كل ذلك يطلقه بلطف خفي وجمال بهي، لا غش فيه ولا تشجأ وإنما هو شوق وثوق، وخوف ورجاء، ومحبة جامحة تكاد تطير بالأكياد فالتقوى عباد يُسْرُونَ بخوفهم، ويستغدون بدموعهم، بأعزوا من الحق عن ربهم فعمروا دنياهم بنظام بدیع، جعلوه مطيةً لئلازل آخرتهم، وركبوا الطريق إلى المحبوب، موقنين بالوصول مطمئنين بالقبول. فذلك هو الهدى الذي جعله الله تعالى الشمة الكبرى لهذا الكتاب!

(١) للقرآن للأستلهاني، والمصمم للوسط لجميع اللغة العربية للعصري، ملحق: هدي.

والتقوى مقام إيماني رفيع، هو في نفسه منازل ومقامات! تنبض مشكاته أولاً في القلب، ثم تنتشر أنوارها وتفيض على سائر الأعضاء والجوارح! فإذا صَفَتْ رجاجة الإيمان بالقلب كان للتقوى ضياؤها وتوهجها، وإلا فلا! ومن ثم قال سيدي الحبيب المصطفى ﷺ: (« التقوى ههنا » و أشار إلى القلب) (١).

وبما أن التقوى هي الشرط الأساس لتلقي الهدى الرباني؛ فقد وقف القرآن عندها وقفة بيان خاص؛ لأن من سلّم له الانطلاق رجاً أن يسلم له الوصول! ولذلك جعل عبارتها ههنا مُلبسة بصيغة اسم الفاعل « المتقين »، وقرع أوصافها في صيغ فعلية، تقع في الزمن الحاضر ترى: « الذين يفعلون كذا، ويفعلون كذا..! » إمعاناً في الدلالة على الحركة الحية والمجاهدة المستمرة والفعل الصادق! فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ١ ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا

فأول بواعث التقوى وأول شروط وجودها: الإيمان بالغيب. الغيب بما هو لفظ جامع لكل حقائق الإيمان، من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره حلوه ومره، وما تعلّق بها جميعها من الحقائق الخفية في عالم الملك والملكوت. فتلك كلها واضح أنها داخلة في مفهوم الغيب؛ لغيابها عن الإدراك البشري، وتعاليتها عن دائرة عقله المحدود. لكن ربما ظن المرء أن الرسل والكتب ليست من الغيب؛ باعتبار أن الرسل بشر عاشوا في الأرض، وباعتبار أن الكتب هي صحف ملموسة وقراطيس متداولة. لكن الحقيقة أن كل ذلك ضارب في عمق الغيب؛ إذ الإيمان بالرسول ليس معناه الإيمان بوجوده التاريخي، فهذا أمر لا ينكره أحد حتى الكفار! ولكنه الإيمان بأنه نبي مرسل من عند الله، يوحي إليه كلام الله، ويستقبله بواسطة الملك جبريل عليه السلام. وكذلك « الكتاب » معنى الإيمان به راجع إلى معنى التصديق بأنه كلام الله، أوجي به إلى رسول الله ﷺ وهذا وذاك هو عين الغيب؛ إذ لا يمكن التحقق منهما جسداً، ولا يمكن تلقي حقائقهما إلا بالإيمان! ولذلك فالتعبير بالإيمان إنما هو متعلق بالمغيبيات، دون الحسيات والماديّات.

(١) جزء حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

وكون الإيمان بالغيب أول شروط وجود التقوى، راجع إلى أن الأساس في صحة هذه الملة قائم على ما يتعلّق به الإنسان من معتقدات أولاً، وأعمال الخصال الإيمانية كلها في لفظ « الغيب »، ههنا فيه دلالة على التسليم والاستسلام، فالإيمان بالمؤمن بالغيب الذي لم يره - رغم ضخامة حقائقه، وثقل مقتضياته - إيماناً حقيقياً، متجذّداً، معناه أنه قد أسلم وجهه لله حقّاً وصار من المؤمنين ولذلك ينتج عنه بصورة تلقائية دخوله الإرادي في تلك العبادة، إقامة للصلاة وأداء للزكاة، وهذان وصفان يعطيان للإيمان بالغيب صورته العملية، ويتصحبان برهاناً على صحة وجوده بالقلب، ومن هنا فالصلاة والإنفاق شرطان أساسيان لتحقيق من مقام التقوى، إذ هما التجلّي الفعلي الأول لحال المؤمن. وقد عبّر عن فعل الصلاة وأدائها بـ « الإقام »، كما هي في غالب مواردها بالقرآن الكريم. ومعنى « الإقام » إحسان الأداء وإتمامه حتى ينتهي إلى كمال غايته. فأقام الشيء يُقِمُّه إقاماً وإقامة، أي: نُصَبُّه ونُثِّقُهُ ونُثَّاقُها بشكل مستقيم. قال تعالى: ﴿ قَوِّمْنَا فِيهَا مِيزَاناً يُبْدِي أَنْ يَتَّقَفَ فَأَكْمَلْتُمْ ۖ ﴾ [الكهف: ٧٧] فالإقامة زَمَنٌ وبنَاءٌ، وإصلاح للشيء حتى يكون على تمام الاستقامة. ومن ثمّ فالإقام الصلاة معناه: إقبال العبد بصلاته على ربه تعالى بالكلية، بإتمام خشوعها وركوعها وسجودها، وسائر أركانها، وتحقيق أذكراها من تلاوة وتسيح ودعاء^(١). فالصلاة تعبير عن عبودية الجسم والروح معاً لله ربّ العالمين. ومن لا صلاة له فلا دين له، بلغة أن يسلك بمذارج التقين

وأما الإنفاق فهو التعبير عن المملوكة الكاملة لله، إذ تخرج العبد عن شعوره بالملكية لأي شيء ما فالعبد الحق مملوك، والمملوك لا ينبغي أن يكون مالكاً ولذلك فهو يشاهد حقيقة المال والنفع الذي ينطلي به، إنما هو رزق الله، فلهذا به إليه ربه على سبيل الإبداع والاستئذان، لينصرف فيه على مقتضى ما أمر الله، لا على مقتضى ما تشتهي نفسه وتغلب أهواؤه. فالإنفاق بالغنى هو من أشدّ أنواع الابتلاء في طريق السير إلى الله. فمن تلقى كلمات الله فيه بقوة وأتمهن، تصرفت في ماله عبداً لا سيداً فصرفه في وجوهه مما أذن له فيه سيده أو أمره به، إنفاقاً في وجوه الخير

(١) روي نحو ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقاعدة وموجهاً. د. تفسير الطبري وابن كثير.

المشروعة وجوباً ولدنياً. وضئ به على وجوه الفساد، مما لا يرضاه رب المال ﴿١﴾
 ثم إن المتقين عباد خاضعون للشرعة كلها، لا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون
 ببعض، كما أنهم - تبعاً لذلك - مؤمنون بالرسالات كلها، لا يفرقون بين أحد من
 الرسل، وهم لربهم مسلمون في ذلك كله. لسان حالهم ومقالهم في كل ما أترق ونهى:
 «سمعنا وأطعنا» ذلك هو الوصف الشرطي الرابع لصحة تخلق المسلم بحلية التقوى.
 وأما الوصف الخامس فهو تحقيق اليقين باليوم الآخر: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾
 ورغم أن الإيمان باليوم الآخر داخل في مفهوم الإيمان بالغيب، فقد أفرده القرآن الكريم
 بالذكر ههنا خاتمة لصفات المتقين؛ باعتبار أن الاعتقاد بالبعث والنشور والحياة بعد
 الموت، كان وما يزال لدى الكفار، مدار جدل شديد ومثار شكوك وإنكارا وعرب
 الجاهلية - وكثير ممن قبلهم - وإن كانوا يؤمنون بوجود الله تعالى لم يكونوا يصلحون
 بالبعث! قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلَهُمْ أَذًا كُنَّا تُزَيَّا أَوْ نَا لَيْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾
 [الرعد: ٥] وبهذا التشكيك شككوا في الرسالة كلها! وجعلوه سبباً للطعن في النبوة،
 وفي صديق الرسول ﷺ! ومن ثم طلب الحق تعالى التحقق بوصف الإيمان بالآخرة
 على درجة اليقين! لأنه إيمان حاكم على ما قبله وجوداً وعدمًا! فمن لم يؤمن بالبعث
 والحساب والجنة والنار؛ فلا قيمة لإيمانه بالله أو ملائكته أو كتبه ورسله! وأتى له بعد
 ذلك أن يصلي أو يزكي وهو لا يرجو ثواباً ولا عقاباً؟! ومن ثم كان من صفات المتقين
 بعد الإيمان العام باليوم الآخر ضمن مفهوم الغيب - تحقيق اليقين به! ولذلك ما قرئ
 شيء بالإيمان بالله في الكتاب والسنة أكثر من الإيمان باليوم الآخر؛ للدلالة على
 مركزته في منظومة الإيمان الكلية ضمن العقائد الإسلامية. وهو في القرآن كثير، من
 مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ ﴿٢٠﴾
 وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [مائدة: ٢]
 وهو كذلك في السنة النبوية كثير (١).

تلك أوصاف خمسة للمتقين، وهي شروط صحة التحقق بأول مدارج التقوى!

(١) منه قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره! ومن كان يؤمن بالله واليوم
 الآخر فليكرم ضيفه! ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت!» متفق عليه.

فهؤلاء هم الذين يتمكنون من تلقي الهدى القرآني ونوره، وهم الذين يفوزون برضا ربهم في الدنيا والآخرة. ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥١﴾. وقد جاء التعبير هنا بجملتين اسميتين بعد وصف المتقين بجمل فعلية متابعة؛ لبيان أن تلك الحركة الفعلية السائرة بتلك الشروط، آتلة إلى هذا القرار الثابت، الذي لا يتغير ولا يتبدل: الهدى والفلاح! فمجاهدة النفس في طريق التقوى، استمداً من الغيب بصورة فعلية متجددة، وإقاماً للصلاة وإنفاقاً في الخير، وتعميقاً مُتجدداً لحقيقة الإيمان بالوحي كله، وتوطين القلب على الخضوع الكلي لأحكامه ومقتضياته، وحمل النفس على الترقى إلى مقام اليقين بالآخرة، في سيرها بتلك الأعمال كلها مجاهدة ومكابدة! كل ذلك مُفَضِّض في النهاية إلى ضمان آمن، وسعادة خالدة، ونعيم مستقر، لا خوف فيه من تغير حال أو تقلب زمان، بل هو كمال الأمان، فنعم الوصول! ومن ثم جعل اتصاف المتقين بالهدى ههنا مستنداً إلى حرف الجر «على»؛ للدلالة على تمكنهم من هذا الهدى وتحقيقهم به! قال تعالى: ﴿عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ... ٥١﴾. ومن سار في طريقه على هدى من ربه وصل. وذلك هو عين الفوز والفلاح. وليس دون ذلك سوى الضلال والخسران المبين!

ذلك هو الكتاب: كلام الله رب العالمين ورسالته إلى الناس أجمعين. وتلك هي حكمته: الهدى لمن آمن به وتلقاه على شرطه. وذلك هو شرطه: تقوى الله ﷻ. هذا، وإن البشرية إزاء هذا الهدى على ثلاثة أصناف، فَصَّلَهُمُ الْحَقُّ تَعَالَى فِي مَطْلَعِ هَذِهِ السُّورَةِ، هَكَذَا عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ: مؤمنون، وكافرون، ومنافقون. وجعل لكل صنف أوصافاً وعلامات. فأما المؤمنون فقد تقدّم بيان صفتهم الجامعة، وهي: التقوى بما تفرّع عنها من أوصاف وشروط. وأما الكفار والمنافقون، فتلك قضية المجلس الثاني بحول الله.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو يتضمّن ست رسالات، هي كالتالي:
الرسالة الأولى: في أن القرآن هو الكتاب! الكتاب الذي به متهاج بناء الأمة من الفرد إلى الجماعة. فهو الدليل المرشد للدعاة الصادقين والمجددين المخلصين. لا ملك

لهم سواه. ومن ثمَّ وجبت مجاهدة النفس به، تلاوة وتركية ومُدرسة؛ لتلقي هُداية الرباني، الذي به تستتير الطريق وتُتضح الرؤية. فالقرآن ببياناته النبوية سُنَّة ومِيرة، هو المصدر الأوحد للمؤمنين الصادقين دينًا ودعوة. ما من كتاب - مهما كان فيه من خير - إلا وجب أن يكون تحت كتاب الله! وما من برنامج - مهما تضمن من حكمة - إلا وجب أن يبنى على آياته وكلماته! فهو المنهاج وهو البرنامج وهو التصوُّر وهو الاستراتيجية! ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله! ومن ثمَّ فلا غنى للداعية من الصبر على مكابدة آياته حتى يستتير بصره بهداه!

الرسالة الثانية: في أن الاستفادة من القرآن، إنما تحصل للقلوب الضارعة القلوب التي طرقت بابه بافتقار كامل، وتلت آياته حقَّ تلاوته! وحقَّ التلاوة معناه: أن يكون القارئ مدرِّكًا بصورة شعورية، حية نابضة، لَمَّا هو يتلقى كلامًا من ربِّ العالمين! فلا يقرأ آية ولا يتلقَّى شيئًا من هُداها إلا بما يجد في قلبه من الرهبة والجلال! ذلك أن هذا القرآن هو كتاب الله ورسالته إلى خلقه، كتاب أوسع من أن تُحيط بكلماته العقول، وأعمق من أن تسبر غوره الفهوم! وإنما يتلقَّى منه الهدى مَنْ جاء إلى ربِّه يسمى وهو يخشى: المتقون!

الرسالة الثالثة: في أن الهدى هو جوهر الرسالة القرآنية، وهو أعظم نعمة على الإطلاق أنعم الله بها على البشرية، لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر. كل نعمة بدونها تنقلب على صاحبها نقمة! فالهدى هو حاجة العبد الصادق، فلا يزال يطلبه داعيًا ربِّه، ومُصلِّيًا له، وسائرًا إليه عبر أحوال الليل والنهار، يتلو كتابه ويتدبَّر آياته، ويتفكَّر في خلق السموات والأرض، فإذا أوتيه فقد أُوتي كل شيء! وإذا حُرِمَ - والعياذ بالله - فقد حُرِم كل شيء!

وبالهدى وجب أن يُخاطب الداعية إلى الله الناس كلُّ الناس، يُعرفهم بحقيقته، ويكشف لهم عن ضرورته، وعمَّا هم فيه من عمى ومن ظلمات وضلال! ويُنلِّهم من عبادة الانصراف عنه، بله معاداته ومحاربتة! وخلاصة الهدى: أنه يبان الله لعباده منهاج عمران حياتهم الدنيا والآخرة، بما ينالون به سعادة الدارين. فذلك هو الصراط المستقيم. وإنما الهدى كل الهدى هو يبان ذلك الصراط وتبيُّته. قال ﷺ: ﴿ هَذَا يَكُنُّ لِلنَّاسِ وَهْدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. وقال لرسوله ﷺ:

متواصلًا لحقائقه في كلِّ خطرة وخطوة، وقراءة لحوادث عالم الشهادة في ضوئه، ومحاولة لتلقي إشاراته في توجيه الحياة الفردية والجماعية، هو صمام الأمان لعصمة السائر إلى الله من الزلل والضلال. فالمؤمن المهمل لهذا الأصل العظيم لا شك يصطدم في طريقه بعوائق وبلايا. كما أن الداعية إلى الله مفروض في حقّه أن تكون له نافذة واسعة، مُشرعة الأبواب أبدًا إلى أفق الغيب، يستمد منه السداد والرشاد. وذلك إنما يكون بتخليص الأعمال والعبادات، وتصفية المناجاة وإخلاص الدعاء والابتهاالات، حتى تشفّ روحه، ويتوهج قلبه بنور اليقين! فلا يرى بعد ذلك إلا بنور الله!

الرسالة السادسة: في أن تحقيق اليقين باليوم الآخر، وما يتضمنه من مشاهد ومواقف، هو الحادي الذي يسوق جميع الأعمال التعبدية.. لينشط سيرها ويُصفي حقائقها، ويُخلصها من الشوائب والأهواء. ومن ثمَّ وجب على المؤمن - بُله الداعية إلى الله - أن يجعل هذه المنزلة غايته: اليقين بالآخرة! يجاهد نفسه في سبيلها حتى يتخلق بها ويتحقق. ذلك أن المسلم يؤمن بالآخرة أولًا إيمانًا تصديق، فيكون عمله لها على قدر ذلك التصديق. وهو الحد الأدنى الذي به يصحّ إسلام المرء، وبفقدته يكفرا لكن المطلوب هو الترقّي في مراتب هذا الإيمان من مجرد التصديق إلى مرتبة التحقيق، والتحقيق: الاجتهاد في مطابقة التصديق للأعمال على الكمال. ثم الترقّي من التحقيق إلى مرتبة المشاهدة القلبية والمعاينة الروحية، بحيث يعيش دنياه الآن وكأنه في الآخرة! يشاهد درجاتها ودرجاتها في كلِّ خلواته وجلواته، فتجري أعماله على وفقها مطوعةً سلسلة، بل لا يجد في قلبه راحة حتى يكون بين يدي ربّه مُتَبَيِّلًا! قال تعالى في سورة الزمر: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَيْنٌ أَعَالَى النَّبْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] فذلك هو كمال اليقين. جعلني الله وإياكم من أهله، بفضله تعالى وتوفيقه!

٤ - مسلك التخلق:

وأما مسلك التخلق برسالات هذا الهدى، فهو يتحقق بثلاثة أمور:

الأول: مصاحبة كتاب الله، واتخاذَه رفيق حياة ومناجاة الرحمن من خلاله بالليل والنهار، ثم جعل سورة وآياته مدارج ومعارج للتعرف إلى الله، واتخاذها حديث المجالس، ومثار التدبّر والتدارس، حتى ترتبط روحك به ارتباطًا، وبصير لكلِّ

سورة مده في عليك لمة وفوضه وحوى وشوقنا تسافر من أجهل وتبحث عن أهله
وتجهد في طلب عمده

وأما الثاني: فهو الاجتهاد في الصلوات بالصفات الخمس - التي هي شروط وجود
التقوى - والترقي بها إلى أعلى درجاتها ومستوى كمالها إقبالاً وإحساناً من حيث
بالغيب وإقامه الصلاة والتعلق للملك في وجوه الخيرة ونيلك بالوحي كله أوله وآخره
ثم طلب البقون بالأحرار

وأما الثالث: فهو مطالعة أحوال الشجرة في سورهم إلى رب العالمين وفقى الشعر
إنا هو سيدنا رسول الله عليه وعلى آله أفضل الصلوات والصلوات فقد قلنا
أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ١٤ ١٥ صالغ سورة يحكي في هذا الشاهد
ونظر أحواله مع ربه في سفره وحضره ولبه وهلم فهو يحكي عن أسوة لأهل
النبي قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَكَرِهَ اللَّهُ عَنَّا﴾ ١٦ ١٧ ثم صالغ بعد ذلك سورة الصلوة
والشعير، وسر العلم الرباني من أهل الصلاح والتقوى الذين عصفوا أنفسهم عن
معلم الله وكفوا أيديهم وأرجلهم عن الأقارب من حدود حلاله ومسوا أكسبه
من الخوض فيما يغضب الله ثم بقوا يتكلمون بين يديه يابون قوفاً وحشية من مقامه
العظيم تلجج أكسهم بذكره تعالى ودعاه، ما جوا ولهم في عوالم الليرة
مستحقين ومستمعين، بقلوب وحنو وحنو دامت ﴿يَتَكَلَّمُونَ بِأَنَّ رَبَّهُمُ الْوَسِيَّةُ
لَهُمْ قُرْبٌ وَرَحْمَةٌ رَحْمَةً وَتَكَلَّمُونَ عَلَيْكَ بِأَنَّكَ رَكِبَ كُلَّ عَذَابٍ﴾ ١٨ ١٩
فإن ذلك كله مفيد جداً في شدة الهم على ركوب طريق التقوى والصبر على
ابتلائهم وعند الترقى على الترقى بملاجهل وما التوفيق إلا بالله

